

آلية الحوار وتأثيراتها على الحياة الأسرية

دراسة في علاقة الآباء بالأبناء

بلعباس نادية⁽¹⁾

مقدمة

تعتبر الأسرة مكان الاتصال والتبادلات الوجدانية لأفرادها، هي المحيط والجو الذي تنمو وتتطور فيه شخصية الطفل الذي يتأثر بالتفاعل المباشر القائم على الحوار بين أفراد الأسرة، فالحوار أساسي لمناقشة الأمور والتحدث فيها، فهو يسمح لكل طرف بالاستماع والإصغاء والتعبير، الأمر الذي يساعد في سبيل الحصول على حلول لمشكلاتهم الأسرية.

تعريف الحوار الأسري

يعد الحوار الأسري عملية صادقة وضرورية لاستمرار الحياة الاجتماعية بصفة عامة والحياة الأسرية بصفة خاصة، كما هو طريقة للتعبير عن مشاعر أفراد الأسرة السلبية منها والإيجابية، بشكل متقبل ولا يحتوي على التجريح للآخرين، وقد يشمل موضوعات لها علاقة بثقافة الأسرة والعلاقات بين الآباء والأبناء (سعيد حسني العزة، 2000، ص 90).

إن الحوار بين الآباء والأبناء يهدف إلى تحقيق التقبل عن طريق التواصل اللفظي وغير اللفظي بينهم، لا يتحقق هذا إلا بحوار إيجابي، يتيح الفرصة لنمو شخصية الأفراد بعيدا عن اللوم والحكم المسبق والتوجيه الجائر، وغرس الكبت والعداء في نفوس الأولاد (عمرو حسين، أحمد بدوان: 2003، ص 60)، إذن الحوار قيمة إنسانية، تنشأ عن طريقها علاقات أسرية يسودها التفاهم والاحترام والثقة والاستقرار والمشاركة، وبالتالي يهيئ للأبناء مناخا أسريا صحيا يشعرون بالأمان، وبالتالي يجعلهم يقومون بالأدوار الخاصة بهم بالطريقة الصحيحة.

المبادئ الأساسية للحوار الأسري

تعتبر الأم المحاور الأولى مع أولادها، بعلاقتها المميزة معهم، فهي ترشدهم وتعلمهم كيف يتجنبون الخطأ، تفهم أخطائهم، ولعل أهم مواضيع الحوار بين الأم وأطفالها هو حثهم على الإصغاء، ليبقى التفاهم نسيجا شفافا ينمو بحبوية العطف والمصارحة، ويبدأ الوالدان مغامرة الحوار، ليبقى أبناء اليوم أصدقاء الآباء مستقبلا، متفهمين لأهلهم ومجتمعهم، بعافية متحررة من كابوس التردد والخوف (توما جورج الخوري: 1988، ص 76)، فالوصول إلى هذا المبتغى يحتم على الآباء الالتزام بالمبادئ التالية:

إيصال الحب: إن العلاقة الوجدانية بين الآباء والأبناء تساعد الطفل على الشعور بالأمن، السعادة وعدم الخوف، حيث يتمكن خلال دفعه لإثبات ذاته وإيصال رأيه دون خوف أو تردد، مما يسمح له بنقل رسائله إلى الأبوين دون تردد.

الاحترام المتبادل: كثيرا من المشكلات الأسرية سببها غياب الاحترام بين أفراد الأسرة، فتضيق الحقوق ويكثر الصراع، ليحل محل الحوار الصراع والنقد وعدم الارتياح، الأمر الذي يؤدي إلى إفساد الجو الأسري، لذا يجب على الآباء احترام أبنائهم حتى يجوبهم ويتمكنون من التواصل معهم دونما حواجز (سعيد حسني العزة: 2000، ص 51).

الاستماع والإصغاء للأبناء: يبدأ الإصغاء الجيد والفعال بالتفاهم والحوار، حيث يعبر الأبناء عن آرائهم ومشاعرهم وأفكارهم بحب واهتمام، فتقوى ثقتهم بأنفسهم وبآبائهم، حيث يصبحون مبادرين للحوار والتواصل والتعبير، أما في حالة ما إذا لم تمنح لهم الفرصة بشكل أكبر للمحاورة والتشجيع على ذلك، كأن يكثر كلام الأب وبالتالي يصعب تركيز الطفل ويفقد القدرة على الإصغاء (عمرو حسين، أحمد بدوان: 2003، ص 61).

البدء بالحوار بكلمة "أنا" بدلا من "أنت": إن البدء بكلمة "أنا" من شأنه تلقين الطفل كيفية الانتباه وتنفيذ طلبات الوالدين، حيث يفسرها الطفل على أنها كلمة صادرة عن الوالدين ولا تتضمن أمرا (توما جورج الخوري: 1988، ص 78)، ذلك أن استخدام الأب لكلمة

"أنت" تشعر الطفل كأنه مهاجم من طرف الأب، إنما استعمال للصياغة التالية "إني أريد منك كذا وكذا" يوحى إلى أمر هين يشعر بالطفل بتقدير الذات.

الحذر من إعطاء الأوامر للأولاد: لا بد من الحوار والتفاهم مع الطفل، حتى يستطيع أن يتمرس بسلام، فكل المصادفات والمفارقات والتناقضات التي قد يجدها خارج أسرته يلقي لها تفسيراً عن طريق الحوار والتواصل مع أفراد أسرته.

على الوالدين أن يقولوا ما يعينانه ويعنيان ما يقولان: التهديد من دون تنفيذ لا يصبح له معنى، وقد يترك وقعا سلبيا لدى الطفل عن والديه، إن تنفيذ الوعد أو الوعيد من شأنه أن يكسب الطفل ثقة بنفسه، هذا ما أكدته المدرسة السلوكية التي تناولت ما يسمى بالتعزيز كتنقية تسمح بالمواصلة في سلوك معين، حيث يكون هذا التعزيز إما بالثواب أو العقاب.

الوضوح والصراحة: إن الكلمة الواضحة المفهومة من شأنها أن تجنب سوء الفهم وتقارب الآراء، فعلى "الوالدين أن تكون صراحتهما شفافة قريبة من مستوى فهم وتفكير الطفل حتى يستطيع قول ما يدور في رأسه دون خوف أو كذب (توما جورج الخوري: 1988، ص 80)، بمعنى تعليم الأولاد أن يقول أحدهم "لا أعلم" عندما لا يعرف الإجابة وذلك أثناء الحوار معه (عمرو حسين، أحمد بدوان: 2003، ص 63)، ومن هنا تكون عملية التواصل ناجحة، حين يسعى كل طرف لمعرفة الكثير حول مزاج الطرف الآخر، حاجاته ورغباته، وهذا يتطلب أن يعبر كل منهما عن نفسه تلقائياً، أي أن يتحلى بالتوكيد، لأنه إن لم يفصح الفرد عن مشاعره بصراحة فإن المشاركة ستتناقص وستتفاقم سوء الفهم (شوقي محمد فرج: 2003، ص 160).

الابتعاد عن التكلم بصوت عالي: على الوالدين الابتعاد عن الصراخ، وتعويضه بالهدوء أثناء الكلام مع الأبناء، فمعلوم أن جسم الإنسان حساس بالنسبة للذبذبات الصوتية، لذا يطلب السيطرة على الأعصاب لتجنب الصراخ، وبدل ذلك خوض حوار بناء وفعال، يوضح الوالدين من خلاله مكامن الخطأ التي وقع فيها الأبناء، ضف إلى ذلك عدم انسياق الوالدين وراء المشاتل الأسرية والسيطرة علة أعصابهما حتى لا يترك الصراخ وعدم الفهم يتقدم على لغة الحوار، فأسرة الصراخ والمشاكل لا تعطي سوى أطفال قلقين، مترددين وذوي شخصية متكئة اجتماعياً (توما جورج الخوري: 1988، ص 81)، ذوي شخصية عدوانية.

الإيجابية: على الأبوين أن يكونا إيجابيين في تعليقاتهما على الأبناء، بالإصغاء لهم ومساعدتهم لحل مشاكلهم وعدم توجيه النقد اللاذع لهم (سعيد حسني العزة: 2000، ص 55)، فكمثال على ذلك لا يقال للطفل "كف عن اللعب" بل مصارحته بأن الضوضاء تزعجها وعليها أن يطلب منه المساعدة حتى يفهمها أكثر.

التحدث والكلام في الوقت المناسب: خير الكلام ما قل ودل، بمعنى الحوار البناء هو حوار بدون تأفف، فمن شأن الكلام مع الطفل في الوقت المناسب والطريقة المناسبة أن يحل العديد من المشاكل، أيضاً تحديد الوقت المناسب للحديث مع العائلة من شأنه حل المشكلات بصورة سليمة، وبناء أسرة سليمة الشخصية، الطبع والمنطق (توما جورج الخوري: 1988، ص 82).

التقبل: على الوالدين تقبل أبنائهم كما هم بأخطائهم ومحاسنهم، بالموازاة مع هذا يعملون على إحداث التغيير المطلوب في سلوكياتهم السلبية، لأن التقبل هو أساس التغيير.

الثقة بالأطفال: على الوالدين أن يثقوا بأبنائهم وأن يتعرفوا على إمكاناتهم وقدراتهم ومواهبهم.

الاعتراف بالتحسن والتشجيع: على الوالدين أن يشجعوا أبنائهم على التقدم الذي يحدثونه في حياتهم وفي أي مجال، فذلك من شأنه تقوية دافعيتهم نحو الإنجاز ويقوي شعورهم بالرضا عن النفس، وعليه وجب على الآباء تشجيع أبنائهم باستمرار على النجاح، ذلك أن التشجيع يساعدهم على التقدم ويعلمهم القيم المطلوبة.

تخصيص وقت للعب: إن حياة الأسرة الجامدة والمثقلة بالأعباء هي حياة قاتلة، لذا على الآباء أن يسمحوا للأطفال بممارسة هواياتهم ونشاطاتهم (توما جورج الخوري: 1988، ص 82)، كما أن المداعبة والممازحة ضروريتان لكل طفل حتى يحافظ على ثقته، ولتحقيق هذه الأهداف والمبادئ لا بد من معرفو إستراتيجيات التعامل مع الأطفال، وهذا لفهم مشكلاتهم أكثر تتلخص في ما يلي (سعيد حسني العزة: 2003، ص 55):

فهم أهداف وسلوك وانفعالات الطفل: كثير من الأطفال يفتعلون المشاكل فقط لجلب الاهتمام والانتباه إليهم، لذا وجب على الآباء فهم أبنائهم ومساعدتهم على أن يتصرفوا بعفوية وذلك بتشجيعهم حتى تتعزز ثقتهم ويستطيعون أن يخرجوا مكنوناتهم وتقديرهم للمواضيع محل الخلاف.

الحزم واللطف: يصعب إقناع هذين المفهومين مع بعض لأنه نادرا ما نجد آباء حازمين ولطفاء في الوقت نفسه، ويقصد بالحزم الفظاظة والشدّة والقسوة، فالمطلوب أن يكون الآباء لطفاء في التعامل ولكن حازمين في اتخاذ القرارات التي تصب في مصلحة الطفل.

عدم المبالغة في معاملة الأبناء: ويكون هذا في أسلوب التربية المتبع، فهناك آباء يهتمون بالطفل لدرجة القيام بأعمال يستطيع أن يقوم بها بمفرده، كإطعامه مثلا وإلباسه ملابسه أو إنجاز واجباته لأن ذلك من شأنه أن يجعل هذا الطفل اتكاليا.

ثبات أفعال الآباء: إن عدم ثبات الآباء في معاملتهم مع أبنائهم، كأن يعاقبهم على سلوك ما في وقت ويمتدحونهم في وقت آخر، هذا من شأنه أن يجعل الطفل لا يميز بين الصواب والخطأ، ولا يعرف كيف يتصرف حيال المشاكل والمواقف التي يقع فيها.

فصل الفعل عن الفاعل: يجب على الآباء أن يميزوا بين الفعل الخاطئ والفاعل، وإذا عاقبوا يجب أن يعاقبوا على الفعل الخاطئ، وأن يحترموا صاحبه وعليهم أن يقولوا للطفل بأنه جيد ولكن سلوكه هو السيئ، وهذا احتراما للطفل كشخص له حقوق وعليه واجبات (سعيد حسني العزة: 2003، ص57).

تجنب الشفقة: إن الشفقة تشعر الطفل بالضعف، أما التعاطف معه فيشعره بالقوة ويمنحه الدعم النفسي، إن للشفقة آثارا سلبية على التنشئة الاجتماعية للأطفال، فإن اعتادوا عليها سوف يضطرون إلى طلبها من كل شخص يعرفونه.

تشجيع الاستقلالية والشعور باللباقة: على الآباء تشجيع أبنائهم على الاستقلالية وعلى تحمل المسؤولية واتخاذ القرارات المصيرية بأنفسهم وأن يتحملوا عواقب هذه القرارات فيما بعد، فكل هذا من شأنه أن يعزز ثقتهم بأنفسهم.

معرفة مقررات المشاكل: أحيانا، يستثمر الطفل وجدانيا في مشكله، خاصة إذا رأى أن هناك استجابة من طرف الوالدين، حيث تجعله يستفيد من عواقب تلك المشاكل "chantage affectif".

معيقات الحوار الأسري

يعتبر أسلوب معاملة الآباء أحد العوامل الهامة لتشكيل شخصياتهم، لذا يجب اختيار أفضل السبل للتعامل، حتى نضمن لهم نموا نفسيا واجتماعيا سليما، إذ تنقسم هذه الأساليب إلى الإيجابية والسلبية، سنوضح منها الأساليب التي من شأنها أن تعيق الحوار الأسري وهي: القسوة: ويقصد بها تسلط الوالدين وفرض قيود على تصرفات الطفل، فقد يلجأ الآباء إلى الشدة والقسوة والضرب والعقاب في معاملة أبنائهم وتوجيه النقد اللاذع الذي من شأنه أن يشعرهم بالعجز والقصور (نبيلة ميخائيل مكري وآخرون: 2005، ص20)، فالطفل ليس له الحق أن يعترض وليس له الحق للمناقشة والحوار، كما أن العقاب الجسدي قد يكون مصحوبا بالتهديد اللفظي، مما يجعل الطفل يتجنب التعامل مع الآباء، الأمر الذي يخلق لهم فرصا أقل لتطبيع العلاقة معهم، كما تنجم عن هذا الأسلوب آثار نفسية سلبية أخرى مثل الميل للخضوع، عدم القدرة على التعبير عن الرأي، فقدان الثقة بالنفس والعجز عن مواجهة المواقف والمشاكل.

الإهمال: وهي ببساطة ترك الأبناء على جنب دون معاملتهم أو التفاعل معهم أو تشجيعهم أو محاسبتهم أو حتى توجيههم (فاطمة المنتصر الكلائي: 2000، ص79)، حيث أثبتت الدراسات أن إهمال الأم لطفلها في مرحلة الطفولة المبكرة ونقص مواقف التفاعل بينهما من شأنه أن يؤدي إلى نموه في اتجاه سلبي، وقد يصل الأمر إلى الاضطراب العقلي والانفعالي والاجتماعي، وقد يكون هذا إما نتيجة لغياب الأم الفعلي أو العاطفي، لقلة وعيها أو لكثرة الخلافات الزوجية التي من شأنها أن تعيق الأم على أداء دورها في الأسرة (نبيلة ميخائيل مكري وآخرون: 2005، ص22).

الحماية الزائدة: يقصد بها المبالغة في حماية ورعاية الطفل، وهذا من شأنه تقليل المواقف المناسبة التي من شأنها تنمية ثقة الطفل بقدراته (فاطمة المنتصر الكلائي: 2000، ص80)، وبالتالي تؤدي إلى عدم الاستقرار الانفعالي، الميل للانطواء، عدم تكوين علاقات إيجابية مع الآخرين، عدم القدرة على تحمل المسؤولية، عدم النضج.

الاتصال الخاطئي في الأسرة: يوجد نمطان من الاتصال الخاطئي في الأسرة حسب دراسة "Woolf et Marga Truyéd" (علاء الدين كفاي: 1999، ص 169)، نمط "أنا أولاً" ونمط "عدم الاستماع"، فالأول يشير إلى عضو الأسرة لصالحه الشخصي على حساب صالح الأعضاء الآخرين، حيث يحدث صراع أو تعارض بين المصالح الشخصية الجماعية من خلال سعي أحد الأفراد إلى تحقيق مصالحه الشخصية على حساب الأعضاء الآخرين.

أما النمط الثاني فيسمى نمط عدم الاتصال، وهو أن يعامل أحد الأفراد بتجاهل أو بسوء فهم، حيث يفشل الفرد في تبليغ أفكاره ومشاعره وحاجاته ومطالبه إلى أفراد الأسرة وخاصة الوالدين، لأن الأسرة لا تريد التواصل معه أو تستمع إليه أو تتجاوب مع توجيهاته مثل الطالب الذي يريد أن يتخصص في مجال دراسي معين ولكن الآباء يرفضون ذلك تماماً.

حجم الأسرة: هذا يعني أنه كلما كبر حجم الأسرة كلما قلت فرص التواصل بين الآباء والأبناء، حيث تزداد بكثرة فرص التفاعل بين الإخوة، ويلجأ الآباء إلى تبني أسلوب أكثر قسوة وحزم من أجل السيطرة على الأسرة وضبط الصراع بين الإخوة، فالأسر قليلة الحجم تتيح لأبنائها نصيب أكبر من الوقت وتزداد فرص الاتصال والتحاور بينهم، وكانوا أسعد مقارنة مع الأسر ذات الحجم الكبير (نبيل عبد الفتاح حافظ وآخرون: 1999، ص 112).

فوائد الحوار الأسري

من فوائد الحوار الأسري (عمرو حسن، أحمد بدران: 2003، ص 60)

تعزيز إستراتيجيات بناء العلاقات الإيجابية بين الآباء والأبناء بتعزيز الاحترام المتبادل، التقبل ونبذ الصراع.

بناء وتعزيز ثقة الأبناء بأنفسهم وتنمية استقلاليتهم، وتشجيعهم على اتخاذ قراراتهم بأنفسهم.

تدريب الأولاد على تقبل الاختلافات مع الآخرين وأن ذلك لا يعد تهديدا لهم.

تدريب الأولاد على تحقيق وتقرير مبدأ القيم المقبولة، فهو مناخ ممتاز لتعديل السلوك.

تنمية المبادرة والمنافسة وحب الاكتشاف، تنمية الروح الاجتماعية التي تساعد في التغلب على الخوف الاجتماعي والحجل.

قد يظهر الحوار الأسري بشكل مباشر أو غير مباشر ما يعانيه الأولاد من مشاعر عدائية أو قلق أو خوف أو صراعات نفسية وكبت.

مساعدة الطفل على بناء اتجاهات إيجابية نحو الآخرين ونحو ذاته وأسرته بالدرجة الأولى.

تقبل الذات كما هي ومعرفة الطفل لطموحاته تبعاً لقدراته وميولاته.

في الأخير لا يسعنا إلا أن نشيد بأهمية الحوار الأسري، وخاصة الحوار بين الآباء والأبناء، نظراً لما له من انعكاسات إيجابية على الأسرة ككل، وحتى على المجتمع، فبفضله يمكن أن يتجنب الآباء الكثير من المشاكل التي يمكن أن يقعوا فيها رفقة أبنائهم، والتي من شأنها أن تعيق أداء أدوارهم بالطريقة السليمة، فعوض أن تنشأ الأسرة على تكوين أطفال أصحاء نفسياً واجتماعياً، تنشأ أفراداً لديهم مشكلات في التواصل الفعال المبني على المهارات الاتصالية المعروفة.

*أستاذة بقسم علم النفس بجامعة مستغانم

قائمة المراجع

- سعيد حسن العزة: الإرشاد الأسري، نظرياته وأساليبه العلاجية، ط1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 2000.
- عمرو حسن، أحمد بدران: كيف تواجه مشكلاتك مع الآخرين، ط1، دار النهضة، 2003.
- توما جورج الخوري: سيكولوجية الأسرة، ط1، دار الجيل، بيروت، 1988.
- شوقي محمد فرج: المهارات الاجتماعية والاتصالية، دار غريب، 2009.
- نبيلة ميخائيل مكاوي وآخرون: الصحة النفسية وعلم النفس الاجتماعي والتربية الصحية، ط2، مركز الإسكندرية.
- فاطمة المنتصر الكلاي: الاتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية وعلاقتها بمخاوف الذات لدى الأطفال، ط1، دار الشروق، 2000.
- علاء الدين كفاي: الإرشاد النفسي الأسري، ط1، دار الفكر العربي، 1999.
- نبيل عبد الفتاح وآخرون: علم النفس الاجتماعي، ط1، مكتبة زهران الشرق، القاهرة، 1999.

